محاضرات في مقياس التربية والتكوين في الجزائر د . تالي جمال

عنوان الماستر: علم اجتماع التربية اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة الثامنة: التربية والتعليم في عهد الاستعمار الفرنسي ج03

ثالثا.قراءات في السياسة الاستعمارية:

أ. الدين:

لقد ظهر جليا منذ البداية رفض الجزائريين للتعليم الفرنسي، حيث كانت المقاومة والرفض من الإشكالات التي استعصى على الفرنسيين فهمها، وطرحت إشكالية كيف ركن الجزائريون للعثمانيين مدة ثلاثة قرون في جين يرفضون الاستعمار الفرنسي؟ يرى دوطوكوفيل:"أن بلاده لم تتفطن لاستثمار تجربة الحكم التركي في الجزائر، وبخاصة شراء ذمم ذوي النفوذ في المجتمع، وذلك كمدخل لبسط الهيمنة وامتلاك الأرض، وتحقيق الاستقرار، لقد تعجب من سبات الجزائريين العميق لمدة ثلاث قرون بينما يرفضون الولاء للفرنسيين[i]"

ويبدو أن هذا التساؤل الذي يقترن بتعجب هو بداية جدية لفهم الرابط بين المجتمع الجزائر والمجتمع العثماني، حيث كشفت الدراسات والأبحاث على حقيقة مفادها ان العامل الأبرز الذي يغذي المقاومة هو الإطار القيمي الذي تحتضنه المؤسسات الدينية، وبالتالي يجب قراءة المجتمع والفرد الجزائري من خلال علاقته بهذه المؤسسات الدينية.

وهذا ما نلمسه في رسالة الحاكم **فيالا شارون** حيث جاء فيها:"إن الغزو قد تم، وعلينا الآن البحث بكل الوسائل الممكنة عن الهدوء داخل البلد، والحال، أن لا شيء يمكن أن يتم ما لم نتعرف على التنظيم الديني الذي من السهل استثارته في شعب جاهل كالشعب العربي، المستعد لاحتضان كل ما من شأنه أن يناهض سيطرتنا عن طريق الحقد الذي يغذيه عند المسيحيين..... إن

دراسة العادات والتقاليد الدينية لدى العرب وحدها تستطيع أن تقودنا إلى هذه النتيجة."[ii]

لقد أشار احد الكتاب الفرنسيين إلى الحضور القوي للدين في بنية المجتمع، في سياق توضيحه للوضع المعقد في الجزائر خلال الثلاثينات:"لقد اصطدمنا بشيء مبهر، انه الإسلام، وكان أول صدمة لنا، وأنا لا أتحدث عن إسلام سنعرفه من بعد، إسلام مضطرب ومتذبذب وغير واثق من نفسه، بل أنا أتحدث عن إسلام راسخ في القلوب وحمول في كبرياء كامل.....وان كنا منشغلين بالفهم فلا ينبغي فهم العلاقة بين حجم التحولات التي تحققت وقوة العائق الذي اجتزناه[iii]"

لقد سيطرت ذهنية التعالي والحط من قيمة الإسلام والثقافة المحلية والفرد الجزائري في الدراسات السوسيولوجية والانثربولوجية، وجاءت هذه الدراسات في نتائجها متناغمة مع ذهنية الإنسان الأوربي الذي يرى في العربي بربريا وغير قابل للتطور وعاجز عن التفكير العقلاني، يقول ليفي برويل الانثروبولوجي الفرنسي:"إن سكان الجزائر في اغلبهم يتميزون بعقلية ما قبل النطق التي يجسدها ما يطلق عليه بالانسان البدائي." ويقول ل. برونو :"أن سكان شمال إفريقيا متعصبون في تدينهم، ومحرومون من التفكير المجرد ومن التأمل العقلي والذهني "[iv]

هي كتابات تدين الإسلام وتجعل منه سبب التخلف والأمية والانحطاط والركود، يقول **هاين:**"إن القبائل والعرب شعبان لن يقبلا أبدا عاداتنا وتقاليدنا، أن عاداتهم البسيطة والمتوحشة بقيت نفسها عبر القرون، ومن الأكيد أنها ستبقى كذلك لقرون أخرى .....أن الإسلام يدفع العرب إلى الحقد على كل ما ليس مسلما، وهو منغرس فيهم.....وهم غير قابلين للتحضر مهما كان خاصة مع حضارتنا."[v]

ب. سياسة التمييز بين الجزائريين:

هيا سياسة ترمي إلى تمزيق المجتمع الجزائر وجعله في حالة صراع، بتأجيج الميز العنصري والصراع القبلي وزرع الفتنة والتشجع على التناحر، ونلمس هذا في قول دوطوكفيل:"إن ساكنة الجزائر عبارة عن شعبين مختلفين من حيث التفكير والسلوك[vi]"وهو ما جعل جل الدراسات الانثروبولوجية والاثنولوجية والسوسيولوجية تتركز على منطقة القبائل دون غيرها، لتثبت أن البربر بما يميّزهم من عناصر ثقافية واجتماعية لا يمكن لهم التعايش مع العرب، وعليه فان الجزائر تفتقر لمكونات الأمة.

يقول العقيد دوماس:"أن هناك صراع قومي متجذر عبر القرون، وهو دليل داحض على تناحر هذين العرقين، فهم أشبه بمعدنين لا يمكن صهرهما كيماويا ، إن القوة والصدفة لم تنجحا سوى في تشكيل هذا الخليط العرقي."[vii]

وان شعوب أو قبائل المغرب العربي بصفة عامة لم يشكّلوا يوما أمة أو إمبراطورية مستقلة،فالغازي الأجنبي لهذه المنطقة، لم يطرد عن طريقة الانتفاضة من الأهالي لكن من قبل غاز آخر، تتحد في حالة الهجوم أو الدفاع تحت قيادة قائد حربي هو بمثابة ملك مؤقت، وإذا مازال الخطر وزعت الغنائم وعادت كل قبيلة إلى استقلالها وعادت النزاعات الداخلية بينهم، يقول **غوتيه:**"إن هذه الفردانية القبلية وهذه الانفصالية الأسرية، هي التي خلقت الانقسامات والمنافسات، وأشاعت في كل العصور وباستمرار الفوضى في بلاد البربر، وصار هؤولاء فريسة سهلة للغزاة الأجانب." [viii]

ويضيف **غوتيه:**"إنهم لم يحققوا وحدة اللغة، فثلث أهالي الجزائر يتكلمون البربرية.....ويجهل العربية، والثلثين الآخرين تبنوها، والفرق ليس في اللغة وحسب..... بل هناك فوارق في أنماط الحياة....لكن الشاوية والقبائل أصبحوا

يتحدثون العربية منذ أربعة قرون وع ذلك فان وحدة اللغة لم تفضي إلى وحدة المشاعر."[ix]

إن مثل هذا الكلام فيه مغالطات كبيرة، فشعوب المغرب العربي كانوا أهل حضارة وثقافة منذ القدم، فامبراطوريات ماسينيسا ويوغرطة التي سطعت في المنطقة ولا تزال آثارها المادية إلى اليوم، وعرف البربر كل أوجه النشاط الذي عرفته الحضارات التي سبقتهم كما كانوا متمرسين في الحروب.

إن محاولة إظهار أن سكان الجزائرين عرقين مختلفين متصارعين، وأنهم يعيشون خارج التاريخ وما يفرقهما أكثر مما يجمعهما، هو طرح استعماري هدفه واضح، ويقول ريموند:"عاش العرب والبربر جنبا إلى جنب خلال قرون، وساهموا بصفة عامة في نفس الحضارة، فالعالم الشمال إفريقي هو الذي سطع وليس أحد العرقين المشكلين لهذا العالم." خاصة أيام الدولة الموحدية التي بلغت درجات عالية من الحضارة، والغريب أن العامل الديني الذي كان صمام الأمان والجامع لكل أطياف المجتمع الجزائري، اعتبرته بعض الدراسات أنه ليس بالعامل القادر على الجمع بين العرب والبربر، باعتبار أن الإسلام ليس بالمتمكن من نفوس البربر.

غير أن الإسلام منح للجزائريين العقيدة التي وحدت سلوكهم واتجاهاتهم، واللغة التي وحدت تفكيرهم وشعورهم، والإيمان الذي وحد حركتهم وانفعالهم، أعطاهم الإسلام حضارة كاملة تقوم على العربية كوسيلة تفكير وتعبير، وعلى الدين كطريقة حياة وسلوك، ولم يتقبل الجزائريون هذه الحضارة وحسب بل ساهموا في تقويتها وتمكينها.[x]

إن فكرة التمييز بين العرب والبربر وما صحبها من نظريات بشأن أصل البربر، هي من صنيع الفكر الاستعماري الفرنسي، الذي عمل على تفسير

الكثير من الصراعات التي دارت في المنطقة على أنها صراعات تعبر عن ذاتية البربر ونزوعهم القومي.

ج. التعليم:

إن الملاحظ للسياسة التعليمية في الجزائر يستنتج أنها سياسة تهدف إلى تجهيل الجزائريين وليس تعليمهم، فعلى الرغم من إن الإدارة الاستعمارية كانت تنظر إلى التعليم التقليدي الموجود أنه يتميّز بالجمود والركود والتخلف وأن محتوياته المعرفية هي التي تقف في وجه التقدم والتحضر، وتشكل عائقا أمام كل عملية تحديث.

كما حاول الاستعمار الفرنسي خلق نخب من الأهالي تتخرج كن المدارس الفرنسية وتعمل بدورها على شغل مناصب في الإدارة الاستعمارية والقضاء وغيرها، تكون حامية للقيم الاستعمارية ومدافعة عن فرنسا، يقول **جونار**:"ليس قدرا على الأهالي أن يفرض عليهم تعليم مهني محض، أو مجرد تعليم عملي .....ان التحرير الفكري والتربية الأخلاقية معطيات أخذت في الاعتبار.....انه من تمام مصلحتنا الكبرى ان نخلق منهم نخبة قادرة على نشر أفكارنا ومبادئنا حول العدالة والتقدم، نخبة بورجوازية محافظة ووفية بالتزاماتها إزائنا."[xi]

د. اللغة:

في الجزائر ومنذ عصور كانت اللغة الامازيغية هي لغة التداول والتواصل، ولعل اكبر الحضارات إسهاما في شمال إفريقيا وتأثيرا على شعوبها؛ هي الحضارة الرومانية بما خلفته من ارث مادي والحضارة العربية الإسلامية بما تركته من اثر في الثقافة والذهنية لدى الفرد المغاربي بصفة عامة.

لقد هاجم الاستعمار الفرنسي اللغة العربية منذ البداية، بالتضيق على التعليم الديني و غلق المساجد والكتاتيب، كي يحرم النشء من تعلم دينه، وصرف

المجتمع عن لغته، كما حاول جاهدا أن يثبت من خلال الدراسات التي أجراها، أن العرب غزاة والإسلام والعربية مكونات دخيلة على البربر، وهم محلون كغيرهم، كون العربية ليست اللغة الأصلية للسكان، والأمازيغية هي اللغة الأصلية حيث عمل المستشرقون على إيجاد أبجدية لها كي تصبح لغة مكتوبة، وا عداد كتب في قواعدها.

ومهما يكن فان الإدارة الاستعمارية بإثارتها للمسألة العرقية فهي تحاول إعادة بعث العصر الروماني في شمال إفريقيا، وهو ما يعبر عنه بالعدد الكبير للدراسات والأبحاث من مختلف المختصين لهذه الفترة التاريخية بالذات، والتي من نتائجها التوصل الى حجم التخلف والركود الذي سببه العرب المحتلون لشمال افريقيا، وا جهاض تجربة تاريخية تمتد من العصر الروماني، وما التواجد الفرنسي إلى محاولة لإنقاذ البربر من تسلط العنصر العربي، وا خراجهم من حالة الركود والجمود والتخلف الحضاري. [xii]

وعليه لم تكن السياسة البربرية جزءا من عملية الشرعنة من خلال الربط العرقي والثقافي والتاريخي لشمال إفريقيا بأوروبا فحسب، بل بخلق فارق بين كيان عربي وآخر قبائلي، وتحسيس هذا الأخير، على انه أكثر سموا من العربي، وأقربه ثقافيا إلى الحضارة الأوروبية مما يسهل عملية اندماجه فيها بكل شرعية.

لقد كانت السياسة الاستعمارية تهدف دوما إلى إضعاف اللغة العربية من خلال إقصائها من تعليمها أو التعليم بها، والحط من شأن الدين ثقافيا، وجعل العامية أكثر شأنا منها، حيث تم صياغة عديد الكتب المدرسية باللغة العامية.

هـ. سياسة الفرنسة:

ظهر التيار الإدماجي داعيا العرب إلى تعلم اللغة الفرنسية للتقرب من الفرنسيين، حتى تكون القاسم المشترك لهوية الجزائر التي يحلمون بها، فان المستوطنين أصبحوا يدافعون على ضرورة تعلم العربية، ...اذ من واجب المستوطنين أن يظلوا أسيادا وقال فيكتور **دي كورنيار** في مؤتمر شمال إفريقيا المنعقد بباريس في أكتوبر 1903 :" إني ارفض المدرسة العربية الفرنسية وتساندني في ذلك الأغلبية الساحقة من المعمرين، ونحن مع تعليم كتاتيبي بالدارجة فقط، مستند إلى تفسير متحرر للقرآن، ملائم لحاجات الاستعمار التوطيني، ليدرك به الأهالي أن محبة الرومي ممكنة."

إنه وباسم سياسة الإدماج تم تسخير اللهجات العامية لتكون في خدمة اللغة الفرنسية، وليس لفرض هذه الأخيرة. وعليه فنشر اللغة الفرنسية لم يكن غاية في حد ذاته، بل مرحلة ممهدة لغرس بذور الفكر والثقافة الفرنسيتين في عقول الجزائريين، مرتبطين لغويا وفكريا وعاطفيا بفرنسا. بعد إزاحة الجدار الصلب المتمثل في الدين، التي تشكل اللغة العربية الاسمنت المسلح له.

من هنا يأتي الإلحاح على دور المدرسة، كونها العنصر الوحيد للتقدم، وإشاعة اللغة الفرنسية، خصوصا في مرحلة التعليم الابتدائي، ففيها تستطيع الأجيال التمكن من العناصر الرئيسية للغة، وهذا هو الهدف الأساس، لان الأهالي لا يمكنهم أن يتحولوا إلى فرنسيين قلبا، الا من خلال تعلمهم التحدث بلغتنا. [xiii]

مهما يكن فان منظري الاحتلال الفرنسي خصّوا العامية العربية أو البربرية بالاهتمام لأسباب موضوعية، ودوافع يمكن حصرها في محاربة العربية الفصحى واستبدالها بالعامية بغية تحويل التراث الضخم للأمة الإسلامية، من قرآن وسنة إلى معطى تاريخي صرف، لا يمكن معرفته الا بالاستعانة بالمعاجم اللغوية.

كما تهدف إلى تمزيق وحدة المجتمع الجزائري تحت غطاء التعدد الاثني واللغوي، مثلما دعا إلى ذلك **بوديشون:**" هناك حقد يفصل بين عنصرين هما قبائل العرب والقبائل البربرية، وهو أمر ينبغي دعمه وعلى فرنسا أن تدفع لمزيد من التناحر، وأن تستفيد منه. [xiv]

ز.جعل الدين مجرد موروث ثقافي وفلكلور:

لقد رافق سياسة الإدماج تغير في نظرة الإدارة الاستعمارية لثقافة الأهالي، فبدلا من خنق هوية المجتمع، راحت عبر العمل المعمق والفعال والحذر تعمل على جعل ثقافة المجتمع مجرد فلكلور، والإضعاف السياسي للدين وجعله مسالما مما يعطي الانطباع على تعاطفها أو دعمها بمنظور ذلك الوقت.

لقد قامت الإدارة الاستعمارية بتنظيم الممارسات الدينية للأهالي، وقامت بتعيين مشايخ وممثلين للإسلام قصد الحط من صورة الإسلام كإطار ثقافي يتعارض مع التطور والحضارة، وغرس فكرة ضرورة الوجود الغربي، وإذا كان الإيمان بالإسلام هو السبب والحامل لبذور التخلف كما تم الترويج له، فان دراسة المرابطين من طرف الجامعيين بكل عناية بلغوا إلى حد وصف الإسلام بنظرة أكثر وحشية في تناقضه مع التطور. [xv]

وفي الوقت الذي كانت فيه الثقافة العالمة محجوبة ومغيّبة بفعل ممارسات الاحتلال الفرنسي، بدأت تبرز فئة من المثقفين الذين أنتجتهم المدارس الفرنسية، وطفت إلى سطح الثقافة الشعبية كسمة من سمات المجتمع الجزائري دون منازع، اختزال الثقافة بشقيها المادي واللامادي بكل أشكال التعبير الفلكلوري، كانت محور الكتب المدرسية، وهي نصوص تتسم بطابع الأدب الشعبي، تم انتقائها بدقة من أجل تحويل الإسلام إلى دين عبادة يعزل فيها السياسي عن الديني.ومن خلال النص التالي نحول ان نبرز الصورة التي جسدتها الكتب المدرسية المعتمدة في مختلف المراحل التعليمية، ولم تكن النصوص المتضمنة فيها سوى فلكلورا:[xvi]

النص الأول: العنوان: **العرب وعوايدهم**

"سكان وطنا يعني بر الجزاير وطن فيه العرب والقبايل والعبيد والنصارى واليهود وفي الصحرة بـ ّرنا بني مزاب والتوارق، لكن النصارى ما نتكلمو شي عليهم على خاطر أخبارهم موجودين في بزاف الكتب، العرب فيهم الشرفاء والاجواد والترابة وبني عداس وبني نياط.

بني مزاب مسلمين...لكن العرب يقولولهم الخامسين وسموهم هكذا على خاطر لعرب عندهم اربعة مذاهب وبني مزاب ما يتبعوا حتى مذهب من هذو الربعة وجعلوا مذهب خامس لنفوسهم.....زواوة قبايل يتكلمو بلغتهم.....يسكنوا في لجبال ويخدمو الصنايع.....السلعة يرفدوها على الزوايل وهما يتمشو.....

النص الثاني: العنوان: **الوعدة عند المسلمين**

من عادة المسلمين إذا اشتد بهم الكرب يعني المصايب بالمثل كان عليه خصام مع عديانه ويخاف لا يغلبوه في الشرع، ومن النسا الا ما عندها شي لولاد ولا كان زوجها ما يحبهاشي، والا كانت مريضة، يروحو هذوك لواحد

الوالي وعهم الشمع والجاوي، ويشعلو شمعة ويبخرو بالجاوي، ويقولو يا ربي اذا قضيت الحاجة الفلانية نجيب لهذ الوالي سنجا قوالا تابوت والا جفنة طعام، وهاكذا الي كان مريض وعندو سطر شديد يروحو ناسو للوالي ويقولوا ذا برا فلان نذبحو كبش ونطعمو به الفقراء لوجه الله الكريم.....ومن عادة لعرب كلهم يوعدوا هل البادية والا أهل المدون، هذا العادة ماشي حرام. [xvii]

ونذكر بعض العناوين الأخرى كالنجمين، وحكايات، زيارة سيدي احمد لكبير في البليدة، حضرة العيساوة، حضرة سيدي عبد القادر الجيلالي،.... هي نماذج من النصوص أو المحتويات المعرفية المقدمة للمتمدرسين في مختلف المراحل التعليمية وبلغة عامية، هدفها واضح إضعاف اللغة العربية وجعلها عصية على الفهم، ومن ثم إضعاف الإسلام وجعل القرآن يحتاج إلى قاموس من اجل فهمه في لمقابل تصبح الفرنسية لغة العلم والإدارة والفئات المثقفة في المجتمع. والملاحظ أن الإدارة الاستعمارية حاولت تجسيد هذه السياسة بشيوخ بعض الزوايا والمرابطين الذين استطاعت استمالتهم بفضل الامتيازات التي حصلوا عليها.

لقد كانت السياسة الفرنسية الثقافية في الجزائر والتي عمادها المدرسة والنظام التعليمي الفرنسي أداة سياسية ضرورية لخلق الشروط الملائمة للاحتفاظ بالسيادة الفرنسية على هذه الأرض، كونه اعتبر الجزائر منذ البداية مملكة عربية وهي امتداد طبيعي للملكة الفرنسية، يقول أحد القادة العسكريين: إذا كان نهر السان يقسم باريس فان المتوسط يقسم بين المملكة العربية والفرنسية، واعتبرت امتدادا لأرضهم المقدسة التي سيطر عليهم أجدادهم ونشروا فيها المسيحية من أيامالرومان والاسبان في وهران، وإنهم استرجعوا ارثهم الديني. والجزائر هي بوابة إفريقيا لنشر الدين المسيحي.

خلاصة:

لئن كان تاريخ الجزائر تاريخ المقاومة والاستعمار الطويل، فان مرحلة الاستعمار الفرنسي من أصعب المراحل، كون الاستعمار الثقافي هو أبشع أنواع الاستعمار على الإطلاق، كيف لا وهو الذي حاول إحلال هوية محل هوية؛ فرنسية محل العربية، ومسيحية محل الإسلام، والتاريخ الفرنسي محل الماضي الحضاري للمجتمع الجزائري.

واستعمل المحتل في ذلك كل الوسائل المادية والإدارية والقانونية والعسكرية، ولعل أخطر وسيلة على الإطلاق كانت المدرسة، كونها تعمل على التأثير المباشر على قيم وثقافة المجتمع، وتنقش على صفحات ناعمة في أذهان الأجيال القادمة، غير أن التعليم التقليدي ومدارس الجمعية والرجال المخلصين لوطننا الحبيب استطاعوا أن ينتجوا عبر هذه المؤسسات التعليمية من القيم ما يحمينا ويجعلننا لا نفقد البوصلة الحضارية، ولا تنطفئ شعلة المقاومة فينا ووهج الانتصار لقضايانا، كيف لا ونحن شعب خاض أعظم ثورة وطرد قوة استعمارية لم تشك يوما في امتلاكها للأرض والوطن.

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علم الاجتماع

محاضرات في مقياس التربية والتكوين في الجزائر

د . تالي جمال